الفصل الخامس

فردريك نيتشه.. والإنسان الأعلى

- ملامح شخصيته
- مجتمع العمالقة:
  ١ - الإلحاد.
  ٢ - دستور الحياة الاجتماعية.
  ٣ - الإنسان الأعلى.
  ٤ - الدورة الأبدية.
- تحليل وتعقيب:
  ١ - نظرة عامة.
  ٢ - ألوهية وألوهية.
  ٣ - ناموس الحياة.
  ٤ - تناسخ جديد.

ملامح شخصيته

أديب ثائر له فكر الفيلسوف وخيال الشاعر.

نادى بهدم الكنيسة وتقويض دعائمها وهو ذو النسب العريق في خدمتها..!! وتبنى الدعوة إلى الإنسان الأعلى ومجتمع العمالقة وهو العليل الذي لم يسلمْ موضع من جسده..!!.

ودعا إلى هجر الفلسفة وشكك في قيم العقل، حتى قذف بعقله إلى بركان الجنون فقضى فيه اثني عشر عاماً أسلمته إلى القبر!!. فما هي قصة ذلك العبقري الثائر والفيلسوف الشاعر؟!.

أسـرتـه:

ولد «فردريك نيتشه» في بلدة «روكن» بألمانيا عام ١٨٤٤م، وصادف يوم مولده احتفالاً بمقدم وليد للأسرة الحاكمة هو «فردريك وليمام» الرابع، فاغتبط الأهل بهذه المناسبة السعيدة وأطلقوا عليه هذا الاسم تيمناً به.

وهو ينحدر من أصلاب لها تاريخ في خدمة الكنيسة، فأبوه قسيس وأجداده لأبيه وأمه قساوسة ورجال دين، وما بلغ فردريك الخامسة من عمره حتى فقد أباه فكفلته من بعده أيدي النساء، ومن أمه وعماته وأخته التي ظلت ترعاه حتى آخر لحظة من حياته، وقد أوصاها في إحدى نوبات مرضه بقوله[1]:

(١) قصة الفلسفة الحديثة د. احمد امين، د. زكي نجيب محمود جـ٢ ص ٥٢١.

«عديني إذا مت ألاّ يقف حول جدثي إلاّ الأصدقاء، ولا يسمح بذلك للجمهور المتطلع، ولا تدعي قسيساً أو غيره ينطق بالأباطيل بجانب قبري في وقت لا أستطيع أن أدافع عن نفسي فيه، إني أريد أن أهبط إلى قبري وثنياً شريفاً!!».

دراساته:

تمتاز طفولة نيتشه بنزعة الجد ورغبة العلم وخشوع الإيمان، حتى أطلق عليه رفاقه في المدرسة «القس الصغير» و«المسيح في المعبد»، وبعد أن أتم دراسته الثانوية التحق بجامعة بون سنة ١٨٦٤ ليدرس اللاهوت، غير أنه ما لبث أن رغب عن تلك الدراسة وانصرف إلى الدراسات اليونانية واللاتينية.

وفي عام ١٨٦٥ عثر ـ بطريق المصادفة على كتاب «العالم كتصور وأرادة» لشوبنهور ووجده كما قال[1]: «مرآة طالعت فيها العالم والحياة بل وطبيعة نفسي مرسومة في جلال مخيف».

وخلال دراسته بجامعة بون أعجب بأستاذ في فقه اللغة يسمى «ريتشل» وعندما رحل إلى جامعة «ليبزج» انتقل معه نيتشه ليستفيد من دراساته العلمية، والتقى هناك بالموسيقي «فاجنر» وتوطدت الصداقة بينهما حتى وصفه نيتشه[2]: «بأن روحه تسودها مثالية مطلقة وإنسانية عميقة وفيها جلال رائع، وكل هذا يشعرني وأنا بالقرب منه بأني في حضرة إله!!».

وفي سن الرابعة والعشرين منحه أستاذه «رينشل» لقب «دكتور» وأوصى به إلى جامعة «بال» بسويسرا قائلاً: إنه نابغة، فعين أستاذاً في فقه اللغة، وبقي في هذا الكرسي عشر سنوات انتهت باستقالته عام ١٨٧٩ لأسباب صحية.

---

(١) المصدر السابق ص ٥١٢.

(٢) نيتشه د. عبد الرحمن بدوي ص ٦٠.

مؤلفاته:

اتفقت كلمة الباحثين على أن فلسفة نيتشه تكمن في شخصيته وتاريخ حياته، ولأن كل ما ذهب إليه من اتجاهات في الإنسان والمجتمع إنّما هو تمثيل صادق لنفس قلقة وفكر مضطرب وعواطف ثائرة.

وأول كتاب ظهر له هو «مولد المأساة من روح الموسيقى» سنة ١٨٧٢ وقد جمع فيه بين تشاؤم شوبنهور وموسيقى فاجنر، واعتبر التشاؤم وحده دليل الضعف والتدهور، والتفاؤل في المأساة هو صفة الرجل القوي الذي ينشد عمق التجربة واتساعها. وأعلن أن الشعب في قوته ينتج الأساطير والشعر، وفي تدهوره ينتج الفلسفة والمنطق. وناشد الشعب الألماني أن يبتعد عن الفلسفة وأن يستسلم للغرائز، وأن عليه أن يصلح الموسيقى كما أصلح الدين بقوة كقوة لوثر عسى أن تشهد ألمانيا عصراً حربياً يموج بالأبطال، فإن مولد المأساة من روح الموسيقى.

وقد استقبل هذا الكتاب استقبالاً سيئاً، ولم يعترف العلماء بقيمة أبحاثه في التراث اليوناني الذي حلله تحليلاً دقيقاً إلاّ في عام ١٩٠١٢ عندما رحب به أحد العلماء البريطانيين الكبار باعتباره «عملاً من أعمال البصيرة ذات الخيال العميق، أزاح إلى المؤخرة بحوث علماء جيل كامل حيث تركها هناك تتعثر»[1].

وتوالت مجموعة مؤلفات هي:

إنساني.. إنساني إلى أقصى حد سنة ١٨٧٨.

والفجر سنة ١٨٨١، والعلم المرح سنة ١٨٨٢.

إلى أن جاء كتابه «هكذا تكلم زرادشت» سنة ١٨٨٣ فكان إنجيل فلسفته تضمن أسسها في الألوهية والإنسان والمجتمع، بأسلوب شعري

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٧٥.

وبيان رمزي حتى اعتبره بعض الباحثين أروع ما كتب باللغة الألمانية على الإطلاق.

ثم أعقب ذلك بكتب أخرى مثل: ما وراء الخير والشر سنة ١٨٨٦ وأصل الأخلاق سنة ١٨٨٧.

وهناك كتب نشرت بعد وفاته أشهرها إرادة القوة، وأفول الأصنام وعدو المسيح، وها هو ذا الإنسان وهو آخر كتبه التي خطها في سنته الأخيرة من حياته العاقلة سنة ١٨٨٨ هذا ومن الشائع أن يقسم فكر نيتشه إلى مراحل ثلاث[1]:

١ ـ المرحلة الفنية الرومانتيكية التي تمتد من ١٨٦٩ ـ ١٨٧٦ وهي المرحلة التي كان نيتشه فيها واقعاً تحت تأثير شهوبنهور وفاجنر وتنتهي بتخلصه منهما.

٢ ـ مرحلة وضعية نقدية وتمتد من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢ وفيها تميز تفكير نيتشه بالتأثر بالمنهج العلمي، بعد أن تخلص من المؤثرات الرومانتيكية السابقة، وتلك هي المرحلة التي حرص فيها نيتشه على أن يوجه أعنف نقد إلى مقومات الحياة الإنسانية في العصر الحديث.

٣ ـ مرحلة صوفية خالصة تبدأ من كتاب زرادشت في ١٨٨٣ وتستمر حتى ١٨٨٨ وفيها يتميز تفكير نيتشه بالاستقلال التام، ويسير في طريقه الخاص ويتخذ أسلوبه شكل التدفق الصوفي لا التحليل النقدي.

نهايته:

ورث نيتشه عن أبيه مرض قصر النظر، حتى اضطر إلى الاستعانة بقارىء وكاتب ولما يتجاوز من العمر الخامسة والعشرين، وعندما التحق بخدمة الجيش عام ١٨٦٧ ـ رغم توسلاته من أجل الإعفاء منها لضعف

---

(١) نيتشه د. فؤاد زكريا ص ٤٣.

نظره وقيامه على أمر أسرته ـ حدث أن سقط من على ظهر جواده فأصيب في صدره وجنبه الأيسر مما عجل بخروجه من الجيش.

ولما نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا (١٨٧٠) اشترك فيها ممرضاً يقوم بإسعاف الجرحى ونقل القتلى وأصيب بالدوسنتاريا التي أوهنته سنين عديدة، وجعلته يستقيل من الجامعة ١٨٧٩ وقد اعتقد حينئذ أن نهايته أصبحت وشيكة فكتب إلى أخته في ١٨٨٠/١/١٦ يقول[1]:

«اعتقد أني أديت مهمتي في الحياة كما يؤديها رجل لم يمنح الفسحة الكافية من الوقت فإنه لا يزال لدي الكثير الذي أود لو أقوله، وفي كل ساعة أخلو فيها من الألم أشعر بأني غني بالأفكار».

ثم تواكبت عليه محن الأصدقاء باعتزالهم له، أو بنقده لهم بالإضافة إلى حالات وجدانية عنيفة وآلام مبرحة لا تلبث أن تودعه مصحة للأمراض العقلية.

وانتهت عبقريته عام ١٨٨٨.
ودفن جسده عام ١٩٠٠.

مجتمع العمالقة

تقمص نيتشه شخصية وهمية أطلق عليها اسم «زرادشت» استنطقها بكل فلسفته، وأورد على لسانها كل تأملاته بأسلوب نثري شاعر، ورمزي هادف..

ولعل نيتشه استهواه الحكيم الفارسي القديم «زرادشت» حتى اصطفاه راوية لفلسفته، ومما يؤكد هذا الظن أن كلا من زرادشت الحقيقي، والمزيف قد هبط وهو في سن الثلاثين من ذروة جبل كان يتخذها مقراً لاستلهام الحكمة وأخذ يذيعها في الناس...

(١) نيتشه ـ د. عبد الرحمن بدوي ص ١٠٠.

فقد حكى الشهرستاني[1]: «إن الزردشتيه يزعمون أن الله جعل روح زرادشت في شجرةأنشأها في أعلى عليين، وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين، وغرسها في جبل من جبال أذربيجان، ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمه ثم لما ولد وبلغ الثلاثين سنة بعثه الله نبياً ورسولاً إلى الخلق».

هذا ويعتبر كتاب: «هكذا تكلم زرادشت»[2] إنجيل فلسفة نيتشه ولذا سنتخذه أساساً في عرض نظرية مجتمع العمالقة والإنسان الأعلى ونحاول أن نستخلص منه رأيه في القضايا الاجتماعية رغم غموضه ورمزيته واستطراد حواره وتعقيد مواقفه.

ويرتكز مجتمع نيتشه على عمد أساسية هي:

١ ـ الإلحاد والقضاء على أصنام الكنيسة وكهنوت رجالها.

٢ ـ دستور للحياة الاجتماعية يمجد القوة والمغامرة والسيادة.

٣ ـ الإنسان الأعلى هو أمل الإنسانية المرتقب.

٤ ـ الدورة الأبدية هي سنّة الوجود.

فإلى تفصيل ذلك:

* * *

أولاً: الإلحاد:

صادف زرادشت وهو هابط من عزلته قديساً يترنم بالأناشيد الدينية فقال في نفسه:

إنه لأمر مستغرب ألما يسمع هذا الشيخ في غابة أن الإله قد مات!!.

ومرة أخرى يصيح:

---

(١) الملل والنحل ـ تحقيق محمد سيد كيلاني جـ ١ ص ٢٣٧.

(٢) ترجمة: فليكس فارس سنة ١٩٣٨: ط المكتبة الأهلية ببيروت.

لقد مات جميع الآلهة ولم يعد لنا من أمل إلاّ ظهور الإنسان المتفوق.

* * *

ومن دراسة الحوار الطويل بين زرادشت وأتباعه والناس حوله تتجلى العوامل الكامنة وراء هذا الإلحاد، ويمكن أن نستخلصها فيما يلي:

١ ـ طلاسم الكنيسة وكهنوت رجالها الأوغاد، وقد عبر عن ذلك بقوله: انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة، وقد سموها كنائس وما هي إلاّ كهوف تنبعث منها روائح التعفن، وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة، وفي هذا الجو الكثيف حيث لا يسود إلاّ عقيدة تصم الناس بالخطيئة، وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب؟!.

إني لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة، من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها... ويستطرد في وصف الكهنة فيقول:

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الموتى، فسربلوا جثثهم بالسواد فإذا ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود، إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلاّ نقيق الضفادع الحزين.

٢ ـ العقيدة الخاطئة في المسيح عليه السلام التي نسجها أرباب اللاهوت، ولذا هاجمها نيتشه وساق عبارة غليظة على لسان ناسك اعتزل الحياة الدينية بعد موت الإله هي:

لقد كان إلهاً خفياً ملفعاً بالأسرار، وفي الحقيقة أن ابنه لم يأت إليه إلاّ عن الطريق الملتوي، لذلك كان الزنا مرحلة من مراحل الإيمان به..!!.

واتهم رجال الكنيسة بأنهم ابتدعوا أشياء سماوية ليخفوا رؤوسهم

في رمالهم، واخترعوا الدماء المراقة لافتداء البشر وأنهم مبشرون بالموت البطيء.

ويدعي زرادشت أن المسيح العبراني مات قبل الأوان، وما كان قد عرف غير موع قومه، وأحزانهم وكيد أدعياء الصلاح والعدل، ولذلك زاره فجأة شهوة الفناء، ولو أنه بقي في الصحراء بعيداً عن أدعياء الصلاح والعدل، لكان قد تعلم حب الحياة وحب الأرض، ولو أنه عمر كثيراً، لكان جحد تعاليمه لأن الرجولة الناضجة، أقدر على فهم الحياة والموت..

٣ ـ قصور العقل البشري عن إدراك الحقيقة الإلهية، ولذا اعتبر نيتشه أن جميع الآلهة رموز ابتدعها الشعراء، ودعا الإنسان ألاّ يتجاوز بتصوره حدود الحواس، ونادى بأن من الافتراءات على الإنسانية إقامة الواحد المطلق الذي لا يناله تحول ولا تغيير، ونصح من يطلب المعرفة الأيتورط في معميات العقل.

٤ ـ إهدار قيمة هذا العالم الأرضي في سبيل العالم الآخر، والاستهزاء بالجسد من أجل إعلاء الروح.

ويرى نيتشه أن العالم الآخر، إنما هو اختراع المعذبين في الأرض وزفرات البائسين، وأن الإنسان في حقيقته جسد ليس غير وما الروح إلاّ كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد الذي هو مجموعة آلات متعددة لمعنى واحد...

* * *

ثانياً: دستور الحياة الاجتماعية:

المبدأ الرئيسي في هذا الدستور هو أن يهدم الناس كل قديم، وأن يقفوا أمام كل عقيدة هرمة ضاحكين مستهزئين.. فكل ما قدم للإنسان

حتى اليوم عن الخير والشر ما هو إلاّ افتراض وتنجيم وأوهام صبيان، ولا تولد الحقيقة ـ عند نيتشه ـ إلاّ من تزاوج الوقاحة وسوء الظن والرفض القاسي، والشقاق في الحياة، وما أصعب أن تتوافق جميع هذه المقدمات..!!

وإذا تساءلنا في تحديد دقيق عن موقف نيتشه من قضايا معينة نجده يمجد القوة وينادي بالمغامرة ويطالب بالسيادة.

وإليك بعض الأمثلة..

أ ـ العلاقات الاجتماعية:

لا رحمة بين الناس، والإحسان يخرج عزة النفس، ويولد الأحقاد لدى المحرومين، ومن استطاع أن يقتطف الثمار من دوحتي فليتقدم، فليس في الإقدام على الأخذ ما في قبول العطاء من مهانة..

وأغرب من ذلك قول نيتشه:

إذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه، وكل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه ـ على الأقل ـ أن يسرع بالسقوط..!!

وأيضاً: لا يشير نيتشه بمحبة القريب، ويعتبرها أنانية مضللة؛ لأن هدفها إغواء القريب واحتواؤه، وكذلك ينفر من الصداقة ويقول:

دع الصداقة إذا كنت عبداً، وإذا كنت عاتياً فلا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء.

وشعار المجتمع عنده هو اقتسام المظالم فمن يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضاً، وليس من الإنسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام، ويقول في عبارة ضاحكة باكية:

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير؛ لأنه يستصغر بذلك نفسه

بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم، والأجدر بكم ألاّ تحتقروا أحداً، تظاهروا بالغضب.

وإذا وجهت اللعنة إليكم فلا يسرني أن تمنحوا البركة.

وإذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادروا المعتدي بمثلها وأرفقوها بخمس مظالم صغرى.

ب ـ المرأة والزواج:

يرى نيتشه أن المرأة ليست أهلاً للصداقة، فما هي إلاّ هرة وقد تكون عصفوراً وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة!.

ولا تعرف المرأة غير الحب إلاّ أن حبها ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب، وإذا اشتغل قلبها بالحب فإن أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظلام.

وخير للرجل أن يقع بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة.

ويقارن نيتشه بين الرجل والمرأة فيقول:

كل ما في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلاّ مفتاح واحد هو كلمة «الحَبل» وليس الرجل للمرأة إلاّ وسيلة، أما غايتها فهي الولد. ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى؟.

إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين: المخاطرة واللعب.

وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة فهي أخطر الألعاب!.

خلق الرجل للحرب وخلقت المرأة ليسكن إليها الرجل، وما عدا ذلك فجنون، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها فهو لذلك يتوق إلى المرأة؛ لأنه يستطعم المرارة في أشد النساء حلاوة!.

تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل، غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى

اللعب، فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل!.

وإذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة فإن قلب المرأة مكمن للشر.

إن سعادة الرجل تابعة لإرادته، أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل.

وإن روح المرأة سطحية فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغاور السحيقة القرار، وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها.

وأخيراً يهمس نيتشه في أذن كل رجل:

إذا ذهبت إلى النساء فلا تنسى السوط!. فما يحرر المرأة من خلالها ليخلق منها المرأة الحقيقية إلاّ من تكاملت رجولته.

والآن ما هي فلسفة نيتشه في الزواج؟

استمع إليه وهو يجيب:

أنت في مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد، ولكن قل لي هل أنت الرجل الذي يحق له هذاالتمني؟.

أأنت الظافر المنتصر على نفسه الحاكم على حواسه السائد على فضائله؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلاّ شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه؟.

إن ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد إذ عليك أن تتطلع إلى ما فوق مستواك، وهل بوسعك أن تفعل إذا لم نكن متين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك؟.

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك أن ترفعها إلى فوق.

عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك. وما الزواج

إلاّ اتحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علة وجوده حتى فصل إلى الإنسان الأعلى:

ومن هذا المنطق يقرر نيتشه أن الزواج لا يبنى على الحب، وإنما خير الرجال لخير النساء، ويترك الحب للسوقة وحثالة البشر يتمرغون في دنسه ولذته البائسة، كما يقرّ نيتشه الزواج المؤقت حتى تتضح كفاءة الزوجين للاستمرار.

جـ ـ العلم والعلماء:

ينادي نيتشه بأن تكون التعاليم شامخة كذرا الجبال، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم؛ لأن الحكمة تريدنا أشداء مستهزئين فهي أنثى ولا تحب الأنثى إلاّ الرجل المكافح الصلب.

وينبغي ألاّ يعطى لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة، فإن القارىء الكسول لا بدّ أن تتصاعد روائح النتن من تفكيره وليس من حق الغوغاء أن تقرأ وتكتب!.

وحمل نيتشه على الحكماء والعلماء والشعراء حملة قاسية.

فالحكماء خدموا خرافات الشعوب، وأوجدوا لأنفسهم عبيداً يلهون بضلالهم الصاخب عندما رفعوا شعار المذلة وهو «إرادة الحق» وتناسوا أن «إرادة القوة» هي جوهر الوجود وحقيقته.

واكتفى العلماء بأن يتفيأوا الظلال ولا يقتحموا المسالك التي تلهبها حرارة الشمس، وأن يفتحوا أشداقهم كي تنتشر منها روائح المستنقعات ويسمح منها نقيق الضفادع.

والشعراء يكذبون كثيراً، وخير ما نرى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر، وهم يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور، وفكر الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً!.

د ـ الحكومة والشعب:

يعتقد نيتشه أن الحكومة لا تقوم إلاّ على أنقاض الشعوب، ولا تقول إلاّ كذبا ولا تملك إلاّ نتاج سرقتها واختلاسها، وهي الصنم الجديد الذي ينظر إليه قرود الشعب، ويتسلق بعضهم البعض الآخر، ويتدافعون متمرغين في الأوحال كي يتقربوا من العرش.

فالحكومة ـ في نظره ـ لا تسود إلاّ في مجتمع يوصف فيه الانتحار البطيء للحياة ولا ينتفع بها إلاّ الدخلاء العاجزون، ولن يظهر الإنسان الأصيل في الحياة إلاّ حيث تنتهي حدود الحكومات.

ومن جهة أخرى فإن نيتشه لا يثق في عامة الشعب، ويرى أن العظمة لا تكون إلاّ بعيداً عن ميدان الجماهير الذي يغص بالغوغاء المهرجين، ويصفهم بالحشرات السامة وطفيليات الأعشاب، ويشبه أصواتهم بطنين الذباب!.

وينصح نيتشه العمالقة بالعزلة على القمم، والأماكن القصية حتى يتبدد من حولهم كل شيء عراه الذبول إذ المبدأ المرفوع عنده:

لا مساواة بين البشر!.

* * *

هـ ـ السلام والحرب:

ويل للناس لو أن خبزهم يوزع مجاناً عليهم فإنهم لا يجدون من يصبون غضبهم عليهم، فبأي حديث يتحدثون إذا حرموا قسوة الحياة؟.

وقد صور نيتشه راوية فكره «زرادشت» يهزأ ببرد الشتاء القارس، ويفضل أن تصطك أسنانه برداً من أن يلجأ إلى الاستدفاء كما يفعل المجتثون، ويبدأ كل صباح بالاستحمام بالماء البارد ولا يأوي ليلاً إلاّ إلى فراش وضيع بسيط.

وهو يحب الدماء ويعشق من الألوان الأصفر القاتم والأحمر الفاقع ـ لأنه يوحي إليه بالدماء.

وينصح نيتشه الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر، مسارعين نحو المستقبل فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت، ويجب أن يقيم الناس في أعماق سرائرهم مُثلاً عليا يجاهدون في سبيلها، فيسير الصالح والطالح، والغني والفقير، والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما في الأرض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً بسلاح ورمزاً برمز.

وإذا كانت هناك فترة سلام فلتكن وسيلة لتجديد الحرب، وخير السلام ما قصرت مدته... ولا يشير نيتشه بالسلام بل بالظفر، ويدعو إلى أن يكون العمل كفاحاً والسلام ظفراً فإنه لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة، وما راحة الأعزل إلّا مدعاة للثرثرة والجدل.

ثالثاً: الإنسان الأعلى:

إن أمل الإنسانية المنشود وغايتها الكبرى من الوجود هو أن تخلق كائناً يتفوق عليها، تجعله مستقر حبها ومكمن شوقها ومبعث كمالها..

ذلك هو «السوبرمان».

فما قصتـه؟

الإنسان ـ في نظر نيتشه ـ حبل منصوب بين الحيـوان والإنسان المتفوق، فهو الحبل المشدود فوق الهاوية.

إن في العبور للجهة المقابلة مخاطرة وفي البقاء وسط الطريق خطراً وفي الالتفات إلى الوراء وفي كل تردد وتوقف خطراً في خطر.

ولتوضيح ذلك فإن نيتشه يرى أن كل الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه طبقاً لنظرية داروين، فالإنسان بدأ بالدودة ومر بالقرد، وهدفه الأعلى الذي لم يصل إليه بعد هو الإنسان العملاق.

وإنسان اليوم ـ لدى نيتشه ـ أعرق من القرود في قرديته ويريد أن يكون سدّاً يقف في وجه الموجة الكبرى في مدها بما اخترعه من أوهام وخرافات، وما يحيط به من ملذات سافلة وفضائل كاذبة، وما ابتلي به من المستهزئين بالجسد، المنذرين بالموت المأخوذين بالعالم الآخر.

وفي خطاب[1] لزرادشت ساق نيتشه ملامح هذا الإنسان الراقي ونلخصها فيما يلي:

١ ـ أيها الرجال الراقون! إن طبقة الشعب تنكر الإنسان الراقي فهي ترى الناس على اختلاف طبقاتهم إنساناً واحداً أمام الله، أما المساواة أمام الله فما لنا ولها ما دام هذا الإله قد مات، ولكن العامة كائنة ونحن نأبى المساواة أمامها، فأعرضوا عن العامة وابتعدوا عن ساحتها.

٢ ـ لقد مات الله ونحن نريد أن يحيا الإنسان المتفوق.

٣ ـ إن زعانف القوم هم سادة هذا الزمان الداعون إلى التجلد والصبر والتواضع وإلى ما هنالك من حقيرات الفضائل.

إنهم لأشباه الرجال يتصفون بصفات النساء، ويقودون الغوغاء طامحين إلى التسلط على مقدرات الدنيا.

أيها الرجال الراقون اعتلوا فوق هؤلاء الناس جميعاً، فإنهم ألد أعداء الإنسان المتفوق.

٤ ـ إن أعظم شر هو أعظم خير للإنسان المتفوق، وإن الدعوة إلى احتمال العذاب وحمل خطايا العالم كانت تليق بالطبقة الحقيرة بين البشر. أما الإنسان المتفوق فيسير بالخطيئة العظمى.

٥ ـ أيها الراقون!

أتعتقدون أن الإنسان الأعلى أتى ليصلح ما شوهتم بأخطائكم، أو ليهتم بتهيئة المراقد الوثيرة للمتألمين منكم، أو ليدل التائهين في

---

(١) من ص ٣١٥ إلى ص ٣٢٦.

الجبل على المغاور ليخرجوا من مآزقهم؟!.

لا بل يجب أن تتزايد آلامكم وشقاؤكم؛ لأن بالضيق وحده يتعالى الإنسان إلى الذرا.

٦ ـ إذا أردتم بلوغ الذرا فتسلقوها بأرجلكم، وقل لمن يمتطى جواداً ويسير خبباً نحو هدفه، لا تنسى أن رجلك العرجاء راكبة معك ولسوف تترجل في آخر الشوط فتهوي من ذروتك إلى الحضيض.

٧ ـ أيها الرجال الراقـون!

أنتم المبدعون ولا تحمل المرأة في أحشائها إلا ابنها.

اعرضوا عن كلمة «من أجل» وتناسوها؛ لأن فضيلتكم تتوقف على ألاّ تفعلوا شيئاً من اجل أحد أو بسبب أحد أو لأية علة.. صمّوا آذانكم دون هذه الأدوات الكاذبة.

إن في أنانيتكم حزم الحبلى؛ لأن محبتكم تحيط بالثمرة التي لم ترها عين بعد.

٨ ـ ارفعوا قلوبكم إلى فوق، ولكن لا تنسـوا أرجلكم، إذ عليكم أن تـرفعوهـا أيضاً، وإذا أردتم إجـادة الرقص فعليكم ألاّ تـأنفوا من الانقلاب على رؤوسكم.

رابعاً: الدورة الأبدية:

الإنسان الأعلى الذي يحلم به نيتشه ـ عندما يؤدي رسالته في الحياة ويكمل عمله المنوط به يحق له أن يموت ظافراً ويتقدم للموت طائعاً. وهكذا يعتبر نيتشه الانتحار في الوقت المناسب موتاً مقدساً، ويلي هذه الميتة الفضلى في المرتبة ميتة من يسقط في المعركة وهو يقتحم الحصون ويحطم القيود.

أما الميتة الشوهاء فهي الميتة الطبيعية التي تزحف كاللص، وتتقدم كالسيد الآمر المطاع.

بقي نوع آخر من الموت وهو الموت العاجل الإرادي للضعفاء والمرضى وذوي العاهات نقذف بهم بعيداً عن الحياة؛ لأنهم لا يصلحون لها.

ولكن ما هو المصير الإنساني بعد الموت؟

يقدم نيتشه نظرية تقول:

كل موجود الآن قد وجد من قبل، والكل يذهب والكل يرجع، وعجلة الكون تدق هكذا من الأزل إلى الأبد فالإنسانية قد وجدت من قبل مراراً لا عدد لها، ومعها جميع الأشياء التي حولها والأرواح تفنى كما تفنى الأجسام، والجميع إلى العدم ثم تتجدد الحياة بعينها إجمالاً وتفصيلاً، وتظل شبكة العلل الدائرة في الخلق المجدد للحياة كلها، ويصبح الانتهاء عودة إلى الابتداء.

وفي أدب رمزي قدم نيتشه فلسفته كلها في نشيد دقات الساعة وهو[1]:

١ ـ أيها الإنسان كن على حذر!.
٢ ـ ماذا يقول نصف الليل في غوره؟
٣ ـ لقد نمتُ. لقد نمت.
٤ ـ ثم أفقت من حلم عميق.
٥ ـ إن العالم عميق.
٦ ـ وهو أعمق مما يعتقد النهار.
٧ ـ وآلامه عميقة.
٨ ـ وأفراحه أعمق من أحزانه.
٩ ـ يقول الألم: اعبر وغادر الحياة.
١٠ ـ ولكن الأفراح تطلب الأبدية.

---

(١) راجع ص ٢٦٠، ٣٥١ من هكذا تكلم زرادشت، ص ٣ من «نيتشه» د. عبد الرحمن بدوي.

١١ ـ تطلب الأبدية العميقة.

١٢ ـ تطلب الأبدية العميقة. (صمت).

فالليل هو: ماضي الإنسانية الطويل، والحلم العميق: هو حضارة الإنسان وتراثه على مدى القرون، والعالم العميق: هو أسرار الكون وقيم الإنسان الجديرة بالاعتبار.

وهو يشير بالنهار إلى المتفائلين، فالحياة ليست ألماً محضاً كما ظن المتشائمون، وليست سروراً دائماً كما وهم المتفائلون، بل شعارها التفاؤل في المأساة، ومن صراع الألم والسرور تدق الساعة وقتها الأخير وهو صمت الموت وتنتهي دورة الحياة يعقبها ابتداء لتلك الدورة بعينها استمراراً للوجود والعود الأبدي.

تحليل وتعقيب

أ ـ نظرة عامة:

اتفقت كلمة الباحثين على أن نيتشه هدم ولم يبن فانقسمت فلسفته إلى جانبين:

١ ـ جانب سلبي ضاق ذرعاً بعقائد الكنيسة وأخلاق العبيد وغوغاء العامة.

٢ ـ جانب إيجابي تمثل في «السوبرمان»، تلك النظرية التي لم تنهض بتقديم تصور عام يمكن تطبيقه لبناء مجتمع ما.

وقد عبر عن ذلك المعنى «يسبرز» في كتابه «نيتشه والمسيحية» بقوله[1]: «والواقع أنه لا يهدينا إلى الطريق ولا يعلمنا اعتقاداً ما، ولا يضعنا على أرض صلبة بل هو لا يتركنا نستريح قط، ولا يكل من تعذيبنا، وهو يطردنا من كل مأوى نلجأ إليه وهو يمزق كل قناع».

(١) المذاهب الوجودية من كيركجورد إلى سارتر ـ تأليف ريجيس جوليفيه، ترجمه فؤاد كامل ص ٦٤.

هذا ويعتبر نيتشه أحد المنابع الرئيسية في الفكر الوجودي لأسباب أهمها:

١ ـ إن فلسفة نيتشه ما هي إلاّ ترجمة أمينة لحياته كلها، مما يؤكد الأصل الوجودي القائل بارتباط الفكر بالحياة، وتوقف فهم كل منهما على الأخر.

٢ ـ إبراز الجانب العدمي من الحياة وخاصة قول نيتشه بأنواع الموت المختلفة من إرادي وطبيعي وعاجل وتفضيله الموت الإرادي لمن أدى رسالته.

٣ ـ إخلاص نيتشه للأرض وتمسكه بها واعتبارها الملكوت الأعلى الذي يسعى الإنسان لامتلاكه.

٤ ـ إبراز نيتشه لفلسفة القوة وإرادتها وإعلاؤه من قيمة إنسانه الراقي.

كذلك فإن مدرسة التحليل النفسي تعتبره من روادها الذين مهدوا لها؛ لأنه سبر أغوار النفس البشرية، وأظهر كثيراً من خفاياها وعلل كثيراً من أحوالها، وقد قال فرويد[1]:

«إن تنبؤات نيتشه ولمحاته الثاقبة تتفق على أعجب نحو ممكن مع النتائج التي وصل إليها التحليل النفسي بعد كثير من العناء».

ومن جهة أخرى فإننا نستطيع أن نرد فلسفته إلى مجموعة مصادر هي:

١ ـ الفلسفة اليونانية وقد تعمق في دراستها وخاصة في كتابه «مولد المأساة من روح الموسيقى» وعرض لعصورها الفكرية في تحليل دقيق وتعقيب نتشوي.

٢ ـ دراسة لتاريخ الملل والنحل وأول ما يؤكد هذا المعنى هو اختياره لاسم

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٧٥.

«زرادشت» عنواناً لإنجيل فلسفته، بالإضافة إلى تعمقه في النصرانية التي هدمها بعنف، واليهودية التي استهزأ بها، وما قالوه بالعَوْد السرمدي إلاّ أثر من آثار الفكر الصابئي، وقد رجح بعض الباحثين أنه سمع عن الإسلام وسيأتي توضيح تلك النقطة.

٣ ـ نظرية داروين في أصل الأنواع، وقد اتخذها أساساً لفلسفته في الإنسان الأعلى وكذا تشاؤم شوبنهور الذي جعله أحد جناحي فلسفته، وإلحاد ماركس الذي افتتح به فكره.

ب ـ ألوهية وألوهية:

وصف بعض الباحثين إلحاد نيتشه بأنه كفر أقرب إلى الإيمان وذلك؛ لأنه وإن كان قد أعلن موت الإله ونادى بملكوت الأرض، وزها بقوة الإنسان الأعلى إلاّ أنه لم يجعل المصير الإنساني عدماً، ولم يختم قصة الإنسانية الكبرى بالقبر بل أكد الخلود الإنساني في صورة العَوْد السرمدي.

ونحن نرى أن الإلحاد النتشوي يقع وزره على عاتق الكنيسة ورجالها، الذين حرفوا الكلم عن مواضعه واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ولَبَسوا الحق بالباطل وضلوا عن سواء السبيل، وذلك واضح من فلسفة نيتشه وكتبه التي خلفها حتى لقد سمّى نفسه «عدو المسيح».

ويبدو أن نيتشه قد سمع عن الإسلام واعجب به ـ شأنه شأن روسو وكافة الذين تمكنوا من دراسة الإسلام، أو وصل إلى سمعهم شيء عن عقائده ومنهاج تشريعه.

وفي كتاب «هكذا تكلم زرادشت» نشيد بعنوان: بين غادتين في الصحراء ـ يضم بين سطوره إشارات موحية إلى الإسلام ونبي الإسلام، ويعتبره المخلص للإنسانية عامة ولأوروبا خاصة، تلك الهرمة التي تكدر جوها الغيوم، وترهقها أشجانها، وتمثل نيتشه في هذا النشيد بجو

الصحراء، ونسمات الشرق، وتمر الواحات، وظلال النخيل. . . . وتلك صورة رمزية لمهبط الوحي وملتقى الرسالات الإلهية في الشرق العربي.

وجاء في تقديم زرادشت للنشيد قوله[1]:

لأصدقن القول، لقد راقني مرة مثل هذا الشميم من قبل عندما أنشدت ما أوحي إليّ بين غادتين في الصحراء، حين ملأت صدري من نسمات الشرق المشبعة عطراً في صفائها، وأنا بعيد عن أوروبا الهرمة، تكدر جوها الغيوم وترهقها رطوبتها وأشجانها.

ذلك زمان عشقت فيه غادتي الشرق في صحرائه، فهنالك سماء غير هذه السماء، لا تتلبد فيها الغيوم ولا تعتكر على أديمها الأفكار، إنكم لأعجز من أن تتصوروا سحر هاتين الغادتين وهما معرضتان عن الرقص جالستان، وفي سكونهما أجمل حركات الفنون، وقد كمن الفكر في صدرهما فكأنما أسرار وألغاز تتماوج أشكالاً وألواناً فلا يعروها قتام.

بعد هذا التقديم الجميل المعبر ساق نيتشه نشيده وهو:

إن الصحراء تتسع وتمتد فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء.

يا للمهابة!!.

يا للبداية تليق بمهابة صحراء أفريقيا!.

تليق بأسد أو نذير يهيب بالناس إلى مكارم الأخلاق.

إنها لروعة لم تسلط عليكما يا صديقتيّ عندما أتيح لي أنا ابن أوروبا أن أجلس عند أقدامكما تحت ظلال النخيل.

حي على الصلاة!!.

يا للعجب!!.

أراني ماثلاً أمام الصحراء ولكني عنها جد بعيد، وما ابتلعتني

(١) ص ٣٣٢ من هكذا تكلم زرادشت.

الواحات الصغيرة بل انفرجت أمامي كأطيب الثغور نكهة فارتميت فيها، وهأنذا عند أقدامكما يا صديقيّ العزيزتين.

حي على الصلاة!!.

إنني أمجد تلك الواحة إذا كانت عززت من نزل فيها.

وأنتما تدركان ما رموزي من الحكمة.

طوبى لأحشائها إذا كانت كهذه الواحة ولكنني أشك في ذلك، فأنا قادم من أوروبا أشد العرائس جحوداً.

أصلحها الله إنه السميع المجيب.

هأنذا جالس في ظلال أصغر الواحات، فما أشبهني بثمرة سمراء مذهّبه تتشوق إلى ثغر كاعب يفتر عن أسنان محدّدة ناصعة كالثلج، وهل تحلم قلوب التمر الملتهبة إلاّ بمثل هذه الثغور.

حي على الصلاة!!.

ما أشبهني بهذه التمور عند الظهر، تتطاير حولها الهَوام المجتمعات وتدور بي شهوات أصغر من هذه الهوام وأشد منها جنوناً وشـراً، وإلى جانبي «دودو وزليخا» صامتـتين كأبي الهول.

ويختم نيتشه هذا النشيد بقوله:

ارتفع يا مظهر الجلال ولتهب مرة أخرى نسمة الفضيلة.

ويا ليت أسد الفضائل يزأر أيضاً أمام غادات الصحراء، فزئـير الفضيلة يا بنات الصحراء أقوى ما ينبه أوروبا ويحفز بها إلى النهوض.

هأنذا ابن أوروبا لا يسعني إلاّ الخشوع والانتباه لدوي هذه الآيات البينات.

وقد توكلت على الله..

إن الصحـراء تتسع وتمتـد فويـل لمن يطمـح إلى الاستيلاء عـلى الصحراء.

هذا وقد اتفقت كلمة المترجم «الأستاذ فليكس فارس»، مع كلمة أحد المتخصصين في فلسفة نيتشه «د. روبرت رينـنجر» على أن المرموز إليه بأسد الصحراء ونذيرها هو النبي محمد ﷺ[1].

ومن هنا فإن الدارس لتاريخ الإسلام وحضارة المسلمين يجد أصول رمزيات هذا النشيد واضحة جلية.

فامتداد الصحراء هو تعبير عن انتشار الإسلام واتساع رقعته، وصحراء أفريقيا هي مشرق الإسلام على أوروبا، فقد عبر طارق بن زياد المضيق المسمى باسمه الآن إلى الأندلس.

ولعل في تعبيرات: «مكارم الأخلاق، وأسد الفضائل، والآيات البينات، وحي على الصلاة، وإنه السميع المجيب، وتوكلت على الله» ما يظهر الأثر الفكري الإسلامي، ونستطيع أن ندرك من تعبير «أنا قادم من أوروبا أشد العرائس جحوداً» ما يشير إلى محاولات المسلمين لتطهير أوروبا ونشر أولوية الحق والعدل في ربوعها، ورد الفعل الأوروبي تجاه هذا الصنيع والذي سجلّه التاريخ تحت عناوين الحروب الصليبية والكشوف الجغرافية والاستشراق.

وأخيراً:

فإننا لسنا في حاجة إلى شهادة نيتشه أو غيره لإظهار حقيقة الإسلام وأحقيته في قيادة ركب الإنسانية، وإنما نحن نثبت قضية هي: إن العقل الأوروبي قد صدم بالكنيسة ورجالها ولو أنه تمكن من دراسة الإسلام عقيدة وشريعة لألقى إليه السلم وعاش في كنفه سعيداً هانئاً.

جـ ـ ناموس الحياة:

إنه لأمر عجاب أن يصدر عن نيتشه دستور للحياة الاجتماعية مبني

---

(١) ص ٢٣ من مقدمة «هكذا تكلم زرادشت».

على إرادة القوة، والإجهاز على الضعفاء، ونزع الرحمة من قلوب الناس ـ وهو البائس المريض.

ألم يعلم أنه أول ضحايا فلسفته لو طبقت؟!.

ومن جهة أخرى فلا ندري أية قوة تلك التي يريد نيتشه أن يمتلكها الإنسان من مهده إلى لحده؟!.

إن ناموس الحياة قائم على أن الإنسان يمر بمراحل ثلاث هي:

١ ـ ضعف الطفولة والصبا.

٢ ـ قوة الشباب والرجولة.

٣ ـ ضعف الشيخوخة والهرم.

ولن تستطيع قوة في الأرض أن تهب للطفولة قوة الشباب، أو تحفظها في أرذل العمر.. قال تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوةً ثُمَّ جعلَ من بعدِ قوةٍ ضعفاً وشيبةً يَخلُقُ ما يَشَاء وَهُوَ العَلِيم القَدِير ﴾[1].

وإن ذلك الإنسان المغرور بقوته لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً، وهو خاضع لعوامل التعرية ومقهور بعوارض الطبيعة، تؤلمه الشوكة وتقتله الغصة وتنتنه العرقة ويلهث في حر الشمس، وتصطك أسنانه في زمهرير الشتاء.

ثم خبرني بربك هل هناك تلازم حقيقي بين الجسم السليم القوي البنية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ـ على فرض وجوده ـ وبين الكمال العقلي وحسن التفكير وسداده؟!.

ألا ترى معي أن هناك أجسام البغال تحمل أحلام العصافير؟!.

إن الإسلام لا يمقت القوة، بل المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

---

(١) سورة الروم، آية: ٥٤.

المؤمن الضعيف، ولكنها قوة لنصرة الضعفاء، والذود عن الحمى، والدفاع عن المقدسات في العقيدة والعرض والمال، قال تعالى: ﴿وما لكُمْ لا تقاتِلُونَ في سبيلِ اللّهِ والمستضعَفينَ منَ الرجالِ والنّساء والوِلْدان﴾[1].

وإن مجتمع العمالقة ـ كما تصوره نيتشه ـ لهو أدنى منزلة من مجتمع الجاهلية، فقد تعاقدت قبائل قريش وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلاّ قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته، وسُمّي ذلك بحلف الفُضول وقد شهده الرسول ﷺ قبل البعثة وقال عنه بعدها:

«لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أُحبُّ أنَّ لي به حُمر النعم ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

وإن مجتمعا يقتسم المظالم وتنزع منه الرحمة، ويرفع فيه السوط على جنسه اللطيف، ويشهر فيه السلاح دائماً، ويتربص الدوائر بغيره لهو مجتمع يتضاءل دونه مجتمع الغاب، ويسمو فوقه مجتمع الجاهلية.

ولقد عانت الإنسانية كثيراً من مثل هذا الغرور الأحمق وتلك الأنانية العمياء، وأقرب صورة لذلك الحرب العالمية الثانية بقيادة «هتلر» الزعيم الألماني الذي تبنى نظرية «السوبرمان» واشتعلت حرب ضارية أكثر من خمس سنين شملت أركان الأرض، وأهلكت الحرث والنسل إلاّ أنها انتهت بهزيمة السوبرمان هزيمة منكرة.

د ـ تناسخ جديد:

نظرية العود السرمدي مجرد خيال طرأ على عقل نيتشه، فاتخذه أساساً لفلسفته، ولم يقدم دليلاً عليه ولا حاول أن يناقشه.

---

(١) سورة النساء، آية: ٧٥.

ـنا تتبعنا الفكر التناسخي لوجدنا أصل القضية مدونا فيه، فما هو الفكر التناسخي إذن؟!.

التناسخ في اللغة:

التناسخ والمناسخة في الميراث موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم.

وتناسخ الأزمنة تداولها وانقراض قرن بعد قرن، وبلدة نسيخة ـ بفتح فكسر ـ ونسخية ـ بضم ففتح ـ بعيدة، ونسخه ـ كمنعه ـ أزاله وغيره وأبطله وأقام شيئاً مقامه.

المعنى الاصطلاحي:

التناسخ في عرف القائلين به: رجوع الروح بعد موت البدن إلى العالم الأرضي متلبسة بجسد جديد.

وهو أنـواع[٢]:

١ ـ النسخ وهو رجوع الروح إلى بدن إنساني آخر.

٢ ـ المسخ وهو رجوع الروح إلى بدن حيواني جديد.

٣ ـ الرسخ وهو رجوع الروح إلى جسم نباتي.

٤ ـ الفسخ وهو رجوع الروح إلى جسم جمادي.

القائلون بالتناسخ:

أصل التناسخ نشأ من فرقة من الصابئة تسمى «الحرنانية» قالوا ـ كما حكى الشهرستاني[١]: «إن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية، ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح

---

(١) شرح المواقف جـ ٨ ص ٣٠٠.

(٢) الملل والنحل ـ تحقيق كيلاني جـ ٢ ص ٥٥.

والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البر التي سلفت منها في الأدوار الماضية، والغم والحزن والضنك والكلفة التي نجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منا، وكذا كان في الأول وكذا يكون في الآخر والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم».

ويعنون بالأكوار والأدوار أن الحياة تجدد نفسها كل فترة معينة، قدروها بستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يوجد فيها من كل زوجين اثنين، فإذا انقضى الدور انقطع التناسل والتوالد ويبتدىء دور جديد من الإنسان والحيوان والنبات وكذلك أبد الدهر فلا بعث ولا قيامة ولا دار سوى هذه الدار.

وقد كان للبراهمة دور كبير في إشاعة التناسخ فالقول به من أخص عقائدهم، وكذلك من فرق الثنوية من يقول به وإن الإنسان أبداً في أحد أمرين[1]:

١ ـ إما في فعل.

٢ ـ وإما في جزاء.

وما هو فيه فإما مكافأة على عمل قدمه، وإما عمل ينتظر المكافأة عليه والجنة والنار في هذه الأبدان، وأعلى عليين درجة النبوة وأسفل السافلين دركة الحية فلا وجود أعلى من درجة الرسالة ولا وجود أسفل من دركة الحية، ومنهم من يقول الدرجة الأعلى درجة الملائكة والأسفل درجة الشيطان.

هذا وقد أثرت هذه الأفكار في المحيط الإسلامي فمن فرق الشيعة الهاشمية من يرى أن الأرواح تتناسخ من شخص لآخر، سواء أكان من بني آدم أو من الحيوانات، وأن روح الله تناسخت حتى وصلت إلى أمامهم وحلت فيه، وقال بذلك أحمد بن حابط وأحمد بن فانوس وأبو مسلم

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٤.

الخراساني ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب وقال: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصور البهيمية إلى أجساد المتصورة بصورة الإنسان إلاّ بالقتل والذبح لما جاز ذبح شيء من الحيوان البتة[1]، من هذا العرض السريع نرى أن القائلين بالتناسخ اتفقوا على الآتي:

١ ـ الروح غير البدن.

٢ ـ البدن يفنى ويندثر وتعود الروح إلى بدن آخر سواء كان إنسانياً أو حيوانياً أو نباتياً أو جامداً.

٣ ـ الإيمان بالثواب والعقاب على كل ما يصدر من الإنسان.

٤ ـ الحياة الدنيا هي دار التكليف والجزاء معاً، وليست هناك حياة أخرى.

فإذا قارنا هذه الأمور بفكر نيتشه عن العود السرمدي اتضح أن هناك اتفاقاً واختلافاً.

فهو يلتقي مع التناسخية في:

١ ـ القول بالخلود الإنساني، واستمرار الحياة من الأزل إلى الأبد من غير انقطاع.

٢ ـ الولاء للأرض واعتبارها الملكوت الأعلى.

ويختلف معها في:

١ ـ الإلحاد وإنكار الثواب والعقاب.

٢ ـ اعتبار الإنسان هو هذا الهيكل الجسدي من غير تفرقة بين روح وبدن.

٣ ـ عودة الأشياء عند نيتشه هي بعينها من غير تبدل وتقمص جوهر لجوهر آخر...

هذا وإن قصة الحياة الإنسانية في دابرها ومستقبلها لا يمكن أن تؤخذ هكذا من أفواه الناس كأحدوثة عجيبة، أو رواية طريفة بل لا بدّ من إلقاء

---

(١) راجع الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٩٠، والملل لشهرستاني جـ ١ ص ١٥١.

السلم لباريء الحياة وخالق الأحياء يقص الحق وهو خير الفاصلين:

وقد حكى القرآن الكريم استحالة عودة الإنسان إلى الدنيا مرة أخرى وصورها في صور بيانية رائعة:

ففي سورة الأنعام يصور القرآن مشاعر المكذبين حين واجهوا المصير السيء فيقول: ﴿ وَلو تَرىٰ إذْ وُقِفُوا على النّارِ فقالُوا يا ليتَنا نُردُّ ولا نكذِّبُ بآياتِ ربِّنا ونكون من المؤمنين ﴾.

ثم يفصح عن حقيقة نفوسهم التي استحكم فيها الفساد فيقول: ﴿ بلْ بدا لهمْ ما كانوا يُخفُون مِنْ قبلُ ولو ردّوا لعادُوا لِما نهُوا عنهُ وإنَّهم لكاذبون ﴾ وأبعد من ذلك لو ردوا لأنكروا ما عاينوه في ذلك الموقف الصعب، وتشبثوا بالحياة الدنيا ونسوا الآخرة: ﴿ وقالوا إنْ هِيَ إلّا حياتُنا الدُّنْيا وما نحنُ بمبعوثين ﴾. فقد جعل بعض المفسرين هذا القول معطوفاً على جواب «ولو ردوا» وهذا ملحظ دقيق.. !!

وفي سورة «المؤمنون» نرى مشهداً لهؤلاء عند الموت: ﴿ حَتّىٰ إذا جَاءَ أَحَدهُمْ الموتُ قالَ ربِّ ارجعُونِ لعلّي أعملُ صَالِحاً فيما تركتُ ﴾.

ثم تبين أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد كلمة جوفاء لا مضمون لها، ولا رجاء فيها:

﴿ كلّا إنّها كلمةٌ هوَ قائلُها ومن ورائِهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون ﴾.

وتسير بنا الآيات حتى نلمحهم: ﴿ تَلْفَحُ وجوهَهُم النّارُ وهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾.

ونسمع التقريع لهم:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَليكُمْ فكنتُمْ بها تكذّبون ﴾؟!.

فيقدمون الاعتراف ويتبعونه برجاء أن يعودوا إلى الدنيا.

﴿ قَالُوا رَبّنَا غلبتْ علينا شِقوَتَنا وكنّا قوماً ضالّين. ربّنا أخْرِجْنَا مِنْهَا فَإنْ عُدْنا فإنّا ظالِمُون ﴾.

والنهاية التي لا مفر منها ولا وزر:

﴿ قالَ اخسؤُوا فيها وَلا تُكَلِّمُون ﴾.

وسورة «فاطر» تقدم مشهداً من مشاهد العذاب:

﴿ وَالَّذِين كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جهنَمَ لا يُقضىٰ عليهمْ فيمُوتُوا ولاَ يُخفَفُ عنهُمْ من عَذَابِهَا كَذلِكَ نَجْزِي كلَّ كفورٍ وهم يصطرخونَ فيها ربَّنا أَخْرِجْنا نعمل غيرَ الذي كُنَّا نعملُ ﴾.

والجواب الحاسم أنه قد أُعذر من أنذر:

﴿ أَوَ لَمْ نُعمِّركُمْ مَا يَتذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَما لِلظَّالِمِين مِنْ نَصِيرٍ ﴾.

* * *